دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الحادي عشر ديسمبر ٢٠١٥م (ص ١٩٩-٢٢٤)

القرآن معجزة الرسول في اللغة العربية وتأثيره

عطاء الرحمن الندوي *

خلاصة البحث: إن أهم ما يمتاز به الباحث أنه قدم القرآن كمعجزة الرسول ﷺ في اللغة العربية وتأثيره في هذا البحث العلمي. لأن الله أنزل القرآن الكريم على رسوله الأمين. ثم جعله معجزة له، واختار لكتابه أفصح اللغات من اللغات البشرية ثم جعله معجزة لنبيه العظيم ورفع به شأن اللغة العربية وأعلى درجتها بين اللغات البشرية. ولأجل ذلك أصبحت اللغة العربية لغة القرآن، ولغة الرسول. وأصحبت لغة دينية للمسلمين في سائر العالم. لأن القرآن كلام رب العالمين. وهو خاطب حامليه على قدر عقولهم ومكانتهم وطبائعهم وخصائصهم. ومواهبهم وظواهرهم. إن دل ذلك على شيء فإنه يدل على إعجازه اللغوي ومعجزة رسوله الكريم. وهذه الميزات التي ينفرد بها القرآن عن غيره من الكتب السماوية الأخرى. لأنه سبحانه وتعالى تكفل بحفظه وصيانته من أول يومه، ولذلك بقيت قدسية القرآن وفضيلته كما كانت وقت نزوله، حيث لم يبق كتابٌ سماويٌ على أصالته إلا القرآن. وهذه الميزات المذكورة تدل على أن اللغة العربية لغة خالدة ومعجزة الرسول. وتكون باقية على الأرض إلى يوم القيامة، فلا تبلى جدتها، حتى يكون الناس مطلعين على أغراض الحياة الإنسانية. فلا يستغني عن إشراقاتها أحد من الناس، فإذا استغنى عنها أي إنسان فإنه يحرم النجاح في الدارين. كما اعترف المؤرخون هذه الحقائق بسعة صدورهم في كتب التاريخ. ويهدف هذا البحث إلى توضيح هذه الحقائق كلها في ضوء القرآن والسنة والحقائق والأرقام.

التقديم:

الحمد لله الذي أنزل على عبده القرآن، واختار لكتابه أفصح اللغات ثم جعله معجزة لنبيه الأمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد !

---

* الأستاذ المشارك باللغة العربية. مركز مواد متطلبات الجامعة. الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ. بنغلاديش

فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن على رسوله الكريم ﷺ. ثم جعله معجزة لنبيه الأمين ﷺ. واختار لكتابه أفصح اللغات، وهي اللغة العربية. ولأجل ذلك أصبحت اللغة العربية لغة القرآن، ولغة الرسول ﷺ. فصارت لغة دينية للمسلمين في سائر العالم شرقا وغربا. شمالا وجنوبا، وإن الله سبحانه وتعالى اختار هذه اللغة لكتابه السماوي الأخير. ولغة رسوله الكريم الذي لا يأت بعده نبي ولا رسول إلى البشرية. ومن هنا أنها أصبحت لغة البشرية كآفة دون الفرق بين الأسود والأبيض. وبين العرب والعجم. وهذه هي الميزات التي ينفرد بها القرآن عن غيره من الكتب السماوية الأخرى. كما قال سبحانه وتعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} (سورة الشعراء-١٩٢-١٩٥) وهذه الآيات تدل على أن البيان لا يتم إلا بهذه اللغة. وإن اللغات الأخرى قاصرة وناقصة في البيان مهما تكون جميلة وبليغة لدى أهلها. ولذلك جعل الله لغة القرآن عربية، كما أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فقال تعالى بلسانه الخالد: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (سورة الزخرف: الآية- ٣) وقال أيضا في محكم تنزيله: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (سورة فصلت: الآية-٣) وقال في الزمر: {قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (الآية-٢٨)

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن اللغة العربية لغة خالدة، وتكون باقية على الأرض إلى يوم القيامة. وهي لا تزول عن الأرض إلا بانحسار هذا الكتاب السماوي المنزل على محمد ابن عبد الله الأمين ﷺ، حيث أننا نجد شهادة سماوية على بقاء هذا الكتاب وبقاء لغته العربية إلى يوم القيامة في هذه الآية القرآنية {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (سورة الحجر: الآية-٩) لأن القرآن يحمل رسالة المستقبل المديد، والماضي والحاضر، ورسالة الأزمنة والأجيال.

وهي لا تتوقف على عصر ومصر، ولا قبيلة ولا أمة، ولا جيل ولا شعب. ولا على طبقة وجماعة. بل هي مشتملة على مصالح جميع الناس والعصر في جميع مجالات الحياة البشرية، كما اعترف المؤرخون هذه الحقيقة بسعة صدورهم في كتب التاريخ، وقد ذكر الأستاذ محمد الخضر قصة رائعة في كتابه عن مستقبل هذه اللغة، فقال: "جون فرن" قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرصية حتى يصلوا ويدنوا من وسطها، ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدا لهم هنالك أن يتركوا أثرا يدل على مبلغ رحلتهم، فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية. ولما سئل فرن عن اختياره للغة العربية، قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه"[1]

فقد تعودت منذ أن تلمذت على أساتذة دار العلوم لندوة العلماء لكهناؤ-الهند- وعلى رأس قائمتهم سماحة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي-رحمه الله- وذلك من عام ١٩٨٦-١٩٩٥م القراءة والكتابة والتحقيق والتدقيق والتفحص والبحث عن أحوال المسلمين عامة والموضوعات العلمية خاصة، ولأجل ذلك إذا رأيت كتابا جديدا سواء كان الكتاب لدى البائع أو القارئ من المسافرين بالطيارات والباصات أشتاق إليه كل الإشتياق حتى أتقلب على المكان الذي أكون كأني على الجمر إلى أن أحصل عليه وأتصفح أوراقه من البداية إلى النهاية، وإذا كنت جالسا في مكتب الجامعة أو حافلاتها أبدأ التفحص مع الأصدقاء حول القضايا السياسية الداخلية والخارجية والشؤون الإجتماعية وأحوال الأمة المسلمة على الصعيد الدولي أو الموضوعات العلمية والتحقيقية الخالصة تتعلق بالإسلام وشريعته الخالدة، ومما يجدر بالذكر لما ركبت على حافلة الجامعة أو دخلت في مكتبها فالنائم يستيقظ، والساكت يتكلم، والحزين يفرح. والغافل يتنبه كأنهم بدؤوا يتلذذون بالحياة الجديدة ويتمتعون بصحبتي، وفي مثل هذه الحالة كنت جالسا في مكتبي بالجامعاة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، بنغلاديش، وبدأ الكلام زميل من زملاء المكتب حول حياة الدكتور إقبال وفلسفته، وأنا أستمع كلامه بكل هدوء، حتى

قال: كان الدكتور إقبال أديبا بارعا، سأله صديق من أصدقائه مرة: أنت أيضا تؤمن بأن القرآن كتاب الله؟ فأجاب الدكتور بنعم، وشعر الدكتور بأنه لا يصدق القرآن بكتاب الله. ولأجل ذلك دعاه الدكتور إقبال لكي يظهر بكلامه صفة جهنم، يدل على أنها كبيرة جدا، وبعد ذلك هو أظهر بكلامه ما أظهر، وكتب ما كتب لبيان وسعتها، ثم قال له الدكتور: تعال نحن نرى ماذا قال القرآن الكريم عن جهنم: فذكر الآية {يوم نقول لجهنم هَلْ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} (سورة ق: الآية—٢٩) ثم اعترف صديقه بأن القرآن كتاب الله. ولما انتهى زميلي من كلامه وأظهر شأنه كأنه أظهر شيئا جديدا على رؤوس الأشهاد، وأخرج إلى حيز الظهور أمرا غريبا وجديرا لا يعرفه أحد من الباحثين فضلا عن زملائه في الجامعة، وبدأ يفتخر أمام أساتذة الجامعة الآخرين بمهارته العلمية ووسعته التحقيقية، كأنه ذو مطالعة عميقة وواسعة، ومعلومات هامة وجديرة، والآخرون جاهلون يعيشون في غابة من الظلام، وفي الحقيقة هم يقولون في أنفسهم بلسان الشاعر العربي القديم:

لما رأيت الجهل في الناس فاشيا / تجهلتُ حتى ظن عني جاهل[٣]

وهو فهم أنهم يمدحونه مدحا ويكيلون المدائح على هذه المعرفة العلمية، وينظرون إليها بنظرة الاندهاش، ثم ينال منهم التشجيع والإستحسان ويقولون بلسان الشاعر العربي الجاهلي:

إذا قالَت حَذامِ فَصَدِّقوها / فَإِنَّ القَولَ ما قالَت حَذامِ [٣]

حيث أنه يعامل مع الزملاء معاملة الخيلاء، ويظهر في جميع الأمور أنه أصبح خبيرا ووصل إلى مكان لا يدركه أحد، وفي هذه الحالة قلت له: يا أخي قال شاعر عربي لما رأى الأمور تخالف الحقائق:

صمتي لا يعني جهلي مما يدور حولي / ولكن ما يدور حولي لا يستحق الكلام. [٤]

ومع ذلك أنا أشعر ليس لكل الأمور تحتاج إلى الصمت، فهناك أمور تحتاج إلى وقفة شديدة ورد قوي. لذلك أقول لك: هذه واقعة صحيحة، وقصة تاريخية ومشهورة، ولكن لا تتعلق مع الدكتور إقبال وصديقه، بل تتعلق برجلين أديبين كما ذكر المفسرون في كتب التفاسير القديمة والحديثة، تستطيع أن ترى في كتب التفاسير القديمة والجديدة كذلك، وهذه الجمل التي ذكرها الشيخ طنطاوي جوهري صاحب التفسير "الجواهر في تفسير القرآن" في تفسيره. ولما سمع هذا التحذير والتنبيه الذي بدد أمله وحطمه ما كان يتوقع، فغضب على هذا الجواب غضبا شديدا، وقال: أنت في خطأ كبير. ولا تعرف شيئا، أنا كتبت هذه الواقعة في مقالتي التي أرسلت إلى مجلة "ثقافة الهند" التي تصدر من دهلي الجديدة، ثم قلت له: أرسلت ما أرسلت، ولكنك أخطأت بنقل القصة، وفي اليوم الثاني قدمت إليه الثبوت من كتاب التفسير، ذُكرت فيه هذه الجمل التالية:

١- إن جهنم واسعة جدا

٢- إن جهنم لاوسع مما تظنون

٣- إن جهنم لا يتصورها عقل الإنسان

٤- إن جهنم لتسع الدنيا كلها

٥- إن الجن والإنس إذا دخلوا جهنم لتسعهم ولا تصيق بهم

٦- كل وصف في سعة جهنم لا يصل إلى تقريب شيء من حقيقتها

٧- إن سعة جهنم لتصغر أمامها سعة السماوات والأرض

٨- كل ما خطر ببالك في سعة جهنم فإنها لارحب منه وأوسع

٩- سترون من سعة جهنم مالم تكونوا لتحملوا به أو تتصوروه

١٠- مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت مقصور لن تصل إلى شيء من حقيقتها

١١- إن البلاغة المعجزة لتقصر وتعجز أشد العجز عن وصف سعة جهنم

١٢- إن سعة جهنم قد تخطت أحلام الحاملين وتصور المتصورين

١٣- متى أمسكت بالقلم وتصديت لوصف سعة جهنم أحسست بقصورك وعجزك

١٤- إن سعة جهنم لايصفها وصف ولا يتخيلها ولا تدور بحسبان

١٥- كل وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان. [٥]

وأخذه مني بيده اليسرى بكل إهانة ورأى بنظرة خاطفة ثم رده إلي، كأنه خبير وعالم متبحر لا يحتاج إلى زبد البحر الذي لا ينقص ماءه ولا يزيد، فهذه المعاملة السيئة ونار غضبه حرضتني على كتابة هذه المقالة، فسطرتُ هذه الواقعة التاريخية على الورق، وفوضتها إلى الباحثين الجدد حول هذا الموضوع حتى يكونوا مطلعين على الحقائق والأرقام بعيدين عن أساطير الباحثين المزعومين في المستقبل القريب أو البعيد، وها أنا أقدم إلى القرآء الكرماء هذا البحث بكل دقة وأمانة بعد أن طالعت كتبا كثيرة في هذا الموضوع.

القرآن في سطور:

إن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين أنزل على محمد بن عبد الله الأمين ﷺ من عند الله العزيز الحكيم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، كما قال خالق الكون بلسانه الخالد: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} (سورة الحديد: الآية—٩) وجدير بالذكر قد بدأ كتاب رب العالمين بسورة الفاتحة واختتم بسورة الناس. وأطولها سورة البقرة وأقصرها سورة الكوثر، وأطول أية فيه آية الدين في سورة البقرة، وعدد سوره ١١٤ وآياته لدى القرآء المكيين ٦٢١٩ وعند الكوفيين ٦٢٣٦ وعند بصريين ٦٢٠٤ وعند قرآء الشاميين ٦٢٢٦ [٦]

وهذه السور تنقسم إلى قسمين: السور المكية والسور المدنية، ومن أعظم السور في القرآن هي سورة البقرة، وأعظم الآية هي أية الكرسي. وما ذُكر فيه بيان من بيانات الأمم المتحدة، أو ميثاق من مواثيق المنظمات الدولية، أو قرار من قرارات الدول الراقية والقوى العالمية إلى الدول النامية أو إلى الدول المتخلفة، بل أنه بيان من رب العالمين. فقال: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} (سورة آل عمرآن: الآية—١٣٨)

وإن الله سبحانه وتعالى أرسل رسالته الأخيرة إلى الناس جميعا، فإذا طالع أحد من الخلق هذه الرسالة السماوية بنظرة إيمانية فإنه يدرك حقيقتها كل الإدراك. فلا يستطيع أن يضبط نفسه إلا أن يخر ساجدا ويقول بدون توقف وبدون تلعثم: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} (سورة النساء. الآية: ٨٢) ويقول: سبحان ربي الأعلى الذي أحاط بكل شيء علما في هذه الرسالة الربانية. كما أشارت الآية القرآنية إلى هذه الحقيقة {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (سورة يونس: الآية— ٦١) وهو منهج الحياة البشرية ككتاب كامل لا نقصان فيه، وشامل يستوعب الزمان وكيان الإنسان كله، وجامع لجميع القيم الإنسانية والأخلاق والتشريعات. وهو كتاب عالمي ليس لأمة معينة ولا لجماعة واحدة، وإنه للإنسان والإنسانية جمعآء، ولا يوجد فيه الفرق من أطيافها وألوانها وألسنتها وأصولها، وقبائلها وأممها، لأنه ليس منهاج بشر أو فرد أو خطة مجموعة من خبرآء العلوم الحديثة والفنون الجميلة، بل أنه رُسِمَ في السماء ونزل به الروح الأمين على رسوله الكريم ﷺ. وإن الله تبارك وتعالى ذكر في القرآن أخبار الأولين والآخرين وخلق السماوات والأرض وفرق فيه بين الحلال والحرام ووضح فيه الآداب والأخلاق وأحكام العقيدة

والإيمان والعبادات والمعاملات بين الناس، وذكر سيرة الأنبياء والصالحين وجزاء المؤمنين والكافرين يوم القيامة، ووصف الجنة دار المؤمنين والنار دار الكافرين كما أشار القرآن {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (سورة الأنعام: الآية-٣٨)

وما وقف على هذا الحد بل جعل القرآن تبياناً لكل شيء، فقال بلسانه الخالد كما سجل القرآن: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} (سورة النحل: الآية-٨٩) وبالقرآن وجد البشر آيات عجيبات وإشارات بهيات من عند الله الحكيم فقال: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (سورة الزمر: الآية-٢٧) ولأجل ذلك وجه القرآن دعوة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلى الناس كآفة، إنه بحر من الغيب يكلم الناس جميعا، ونور من السماء يخرج الناس من الضلالات إلى الهداية، ومن الظلمات إلى النور، فقال دون جمجمة ولا لعثمة: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصير} (سورة البقرة: الآية — ٢٨٥).

وإذا دارسنا القرآن الكريم بالنظرة العميقة فإننا نجد فيه بيان أحوال يوم الدين وما بعد الموت من البعث والحشر والعرض والحساب، وبين الله سبحانه وتعالى فيه الحوض والصراط والميزان والنعيم والعذاب، وجمع الناس لذلك اليوم العظيم، فكن أيها القاري على قدر الخطاب، وتكون إن شاء الله من الفائزين في الدنيا والآخرة بهذا الكتاب، فأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق الساتعة في هذه الآية القرآنية {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً} (سورة النساء: الآية-٨٧) وإن الرسول ﷺ حرض الناس على التمسك بالقرآن، فقال: (كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض) [٧]

فإذا إعتصم أحد بالقرآن لا يتيه في الأرض بل يعصمه الله تبارك وتعالى من الضلالة والتهلكة. لأن الرسول ﷺ قال: (أبشروا .. فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبدا) [٨]

وقال رسولنا الكريم ﷺ (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ) [٩]

وقد نقل الإمام مسلم جديثا في كتابه عن زيد ابن أرقم أن رسول الله قال ﷺ: ألا! وإني تارك فيكم الثقلين: أحدهما كتاب الله، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة [١٠]

أنظر أيها القاري إلى بلاغة كلام رسول رب العالمين، وهذا تعبير نبوي رفيع. ومصدق شرعي أصيل. وما وقف القرآن الكريم على هذه الواقعات بل أنه حرض الناس على النظر والتفكر في الآيات الكونية والآيات القرآنية. فقال: {قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} (سورة يونس: الآية–١٠١) كما سأل الله سبحانه وتعالى الناس بالتوبيخ والتهديد {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (سورة محمد: الآية–٢٤) وهنا نستطيع أن نقول: إذا فكرنا في الحقيقة فإننا نجد التدبر مفتاحا للوصول إلى إدراك فهم رسالة القرآن، ونجد فيها العقائد والعبادات، والفقه والمعاملات، والقصص والعبر المبسوطات، لأن القرآن كتاب الله إلى الناس كافة، ولأجل ذلك قال الله تبارك وتعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} (سورة الزمر: الآية–٤١) وإن القرآن الكريم يصدق جميع الكتب السماوية وهو مهيمن عليها، كما قال سبحانه بلسانه الخالد: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (سورة المائدة: الآية–٤٨) وإن القرآن أصبح الكتاب الكامل، لأنه يحمل كل شيء يحتاجه الناس في مراحل الحياة الفردية والجماعية،

ولذلك أنه أصبح كتاب البشرية إلى أن تقوم الساعة، ومما لا شك فيه فمن لم يؤمن به فهو كافر، ويعاقب بالعذاب يوم القيامة. كما قال سبحانه وتعالى بكل شدة وصلابة بالموقف المتفجر: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}(سورة الأنعام: الآية—٤٩)

أظن إذا اختتمت الكتابة عن القرآن بكلام الإمام الطحاوي فهو يكفيه. وهو كتب " القرآن الكريم كلام الله منه بدا، بلا كيفية قولا. وأنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا. وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة. ليس بمخلوق ككلام البرية. فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر"[١١]

كما يقول جل ذكره: {قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ...} (سورة الإسراء: الآية—٨٨) وفي مكان آخر أشار القرآن إلى عجز الخلق: {وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ..} (سورة البقرة: الآية— ٢٣ و٢٤)

وفعلا عجز العرب وأدباؤه عن معارضه عجزا تاما. وقد وجم زعماء الأدب وأمراء البيان من العرب القدماء أمام بلاغة القرآن. ومع ذلك فإننا نرى بعضا من أدباء العرب بذلوا جهودهم المتواصلة لإنتاج كتاب مثل القرآن في القرون المنصرمة ردا على هذه الأيات القرآنية المذكورة، ولكنهم ما بلغوا معشار عشره من حيث الفصاحة والبلاغة والحلاوة والطلاعة فضلا عن الإتيان بمثله. فشلوا كل الفشل كما أشار الأستاذ السيد قطب إلى هذه الحقيقة " كيف استحوذ القرآن على العرب، وكيف اجتمعوا على الإقرار بسحره" [١٢]

ففشل العرب القدماء فشلا تاما في محاولتهم الخبيثة، وكان من بينهم مسيلمة بن حبيب. طليحة بن خويلد، نضر بن الحارث، ابن الراوندي، أبو العلاء المعري، ابن المقفع، المتنبي وغيرهم من أدباء العرب. وهؤلاء الأدباء بذلوا كل ما في سعتهم من قوتهم الأدبية والبيانية من الفصاحة والبلاغة، وبراعتهم من الخطابة الكتابة. ردا على الآيات القرآنية ولكن عبارتهم كلها مثيرة

للسخرية. وتنحصر على المحاولة العقيمة، كما نرى قرآن مسيلمة وهو كتب: "الفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ ذَنَبٌ وَبِيلٌ، ولَهُ خُرْطُومٌ طَوِيلٌ" و"يا ضفدع بنت الضفدعين.. نقي ما تنقين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك في الماء، وذنبك في الطين" و"والليل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسد من رطب ولا يابس" و "وَالطَّاحِنَاتِ طَحْنًا، فَالْعَاجِنَاتِ عَجْنًا، فَالْخَابِزَاتِ خَبْزًا، والآكلات أكلا، فاللاقماتِ لقما، إِهَالَةً وَسَمْنًا" كانت تلك بعض المقاطع مما يسمى بـقرآن مسيلمة.[١٣]

وكذلك أنه كتب في مكان آخر في قرآنه: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعة من بين صفاق وحشا.[١٤] وهنا أستطيع أن أقول بكل صراحة إن القرآن معجزة خالدة ويكون أثره باقيا على اللغة العربية إلى يوم القيامة.

لماذا يعد القرآن عظيما؟

ومما لا شك فيه أن القرآن المنزل على الرسول ﷺ للناس جميعا، من العرب إلى العجم، ومن الأبيض إلى الأسود، ومن الحاضر إلى البادي، ويبقى هذا الكتاب على وجه الأرض إلى يوم القيامة حتى يكون الناس مطلعين على أغراض الحياة الإنسانية، فلا يستغني عن إشراقاتها أحد من الناس، فإذا استغنى عنها أحد فإنه يحرم النجاح في الدارين، ولأجل ذلك يعد القرآن عظيما لأنه كتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، حتى انجذب المنكرون إلى جمال القرآن وكماله في عهد الرسول ﷺ. ويدل عليه ما عبر عنه الوليد بن المغيرة حين سمع تلاوة القرآن فقال: "والله إن له لحلاوة إن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر" [١٥]

وتكون تلاوته عبادة وسببا للحصول على مرضات الله، كما أعلن الرسول ﷺ بلسانه البليغ عن تعليم القرآن الكريم فقال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" [١٦]

وها نحن نريد أن نذكر تلك الواقعة التي حرضتني على كتابة هذا البحث العلمي كما ذكر الأستاذ وحيد الدين خان "سأذكر هنا واقعة معينة، لتبين لنا لماذا يعد القرآن عظيماً ويعد كتاب لله؟ ولماذا نعتقد بأن القرآن كتاب الله؟ فاعتقادنا بذلك ليس مجرد اعتقاد أعمي أو إيمان غير شعوري بل هو اعتقاد علمي قائم على الحقائق، كان هناك بمصر العالم والشيخ المشهور طنطاوي جوهري صاحب كتاب تفسير بالعربية بعنوان (الجواهر في تفسر القرآن)، ذكر في تفسيره ذلك واقعة رائعة ومعبرة جداً، حيث قال: " إنه في سنة ١٩٣٢م عقد مؤتمر دولي وكان من ضمن المشاركين في هذا المؤتمر البروفسور الجيلاني، ثم حدث وأن التقي هذا البروفسور الجيلاني بالبروفسور الأمريكي فنكال وكان أيضاً أحد المشاركين، وجرت محادثة بينهما فقال البروفسور فنكال وكان مسيحي لزميله الجيلاني وكان مصري مسلم، (هل تؤمن بأن القرآن كتاب معجز كما يعتقد جل المسلمين؟)، فرد عليه البروفسور الجيلاني أن المسألة ليست مجرد اعتقاد بلا دليل بل هذا الاعتقاد يمكن البرهنة عليه، وأنه يمكن إثبات الحقيقة الإعجازية للقرآن من خلال التجربة العملية. فقال فنكال: ولكن كيف؟ فرد الجيلاني بالقول: سأطرح عليك فكرة ما وسنعمل كلانا على صياغتها بلغة عربية فصيحة بقدر ما نستطيع. وكان كلاهما أستاذ متخصص ومتضلع في اللغة العربية، واقترح الجيلاني أن يعملا على صياغة فكرة مفادها أن (النار أو جهنم واسعة بشكل كبير جداً)، فجلسا كلا منهما على الطاولة وبدأ في كتابة جمل للتعبير عن تلك الفكرة فكتب الجيلاني حوالي عشرون جملة نحو: (أن جهنم لواسعة جداً)، (أن جهنم لوسيعة)، (أن جهنم لفسيحة)، (أن جهنم أوسع مما تظنون)،..الخ، وبعد أن وضع فنكال من جانبه كل التعابير التي توصل إليها وأعلن أنه لم يعد بمقدوره أضافة تعابير أخرى للتعبير عن تلك الفكرة. قال له الأستاذ الجيلاني: لقد فشلنا. فقال فنكال: ولكن لماذا؟ فقال الجيلاني: لقد فشلنا في كتابة جملة وتعبير مثل القرآن الكريم. فسأل فنكال: وما هو التعبير القرآني عن تلك الفكرة؟ فقرأ البروفيسور الجيلاني من سورة ق الآية التي تصف سعة جهنم، {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} (سورة ق: الآية-٢٩) فرد البروفيسور فنكال: ما أبدع هذا

الأسلوب وأعظمه لقد فشلنا في صياغة الفكرة بهذا الأسلوب. والأشخاص المتمكنين من اللغة العربية وحدهم قادرين على إدراك مثل هذه الحوارات، أذ أن الترجمة وحدها غير كافية لإدراك الفرق بين الأسلوبين في التعبير في اللغة العربية، وعندما يدرس المرؤ القرآن الكريم سيتأثر كثيرا بهذا الأسلوب القرآني.[١٧]

نظرة خاطفة على المعجزات:

المعجزة لغة:

عجزت المرأة تعجز عُجُوزا: كبرت وأسنت. وعجز عن الشيء عَجزا وعجزانا: ضعف ولم يقدر عليه. وأعجز فلان: سبق فلم يدرك وأعجزه فلان: صيره عاجزا. والعجز: مؤخر الشيء، يُذكر ويؤنث. والعجز ضد القدرة، والعجوز سميت بذلك لعجزها، أي: ضعفها وعدم قدرتها في كثير من الأمور.[١٨]

وذكر صاحب القاموس أن العين والجيم والزاي تدل على أصلين، أحدهما الضعف، والآخر مؤخر الشيء. وأمر معجز ومعجزة : أي يعجز البشر أن يأتوا بمثله. والتاء في معجزة ليست للتأنيث، وإنما هي للمبالغة.[١٩]

المعجزة اصطلاحا:

في الحقيقة أن المعجزة رسالة إلى العقل الإنساني، وقد عرفها العلماء والخبرآء بالجمل المختلفة والتعبيرات المتعددة مع عدم المعارضة، فقال بعض من العلماء والخبرآء: "

أمر خارق للعادة "وقال الآخر:" العمل الخارق للعادة الذي يعجز البشر حتى النوابغ والعباقرة عن الإتيان به "[٢٠]

وقيل: " أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة تصديقا له في دعواه مقرونة بالتحدى مع عدم المعارضة "[٢١]

ونعرف المعجزة ونتميز عن غيرها من الأمور، لا بد أن تكون الخارقة: خارقة للعادة وللقوانين الكونية المعتادة. والنواميس الثابتة كعدم إحراق النار، وإحياء الموتى، وقلب العصا حية تسعى. كما كانت معجزة عيسى عليه السلام أشبه بالطب، لأنه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص أمام هؤلاء الذين زعموا أنهم وصلوا إلى غاية علوم الطب، وبلغت معرفتهم الطبية إلى قمة التقدم والإزدهار، ولما ظهرت معجزة عيسى عليه السلام أمامهم ورأوها بأم أعينهم ففزعوا وذعروا قالوا: إن هذا لا يتعلق بالطب وهذا أمر خارق لنظام الطب.

شروط المعجزة:

١- أن تقع المعجزة على يد نبي أو رسول

٢- أن تجري المعجزة على وفق دعواه

٣- أن تقترن المعجزة بالتحدي من قبل النبي لقومه ومن قبلهم له

٤- أن يكون الناس عاجزين عن معارضته.

لقد ظهرت معجزات كثيرة في جميع أطوار حياة الأنبياء والرسل منذ أن خلق الله الكون، وكان ظهورها لازما في تلك العصور والأمصار لإثبات رسالاتهم السماوية بين أممهم، حيث كانت

الشعوب والأمم تتطلب خوارق وعادات ومعجزات باهرات في القرون المنصرمة من أنبيائهم، فإن الأنبياء والرسل جاؤوا بالمعجزات الباهرات والبراهين الساتعة والحجج القاطعة أمام رؤساء الأقوام والقبائل من عند الله الحكيم حسب متطلباتهم، كما سجل القرآن الكريم هذه الحقائق بلسانه الخالد. وإن التاريخ يشهد لنا بأن الناس قد اتخذوا طلب المعجزات عادة، ولا يقبلون شيئا دونها. ولأجل ذلك فإنهم كانوا يطلبون من الرسول ﷺ معجزات أيضا، حيث أنهم كانوا يعيشون بعيدين عن إدراك حقيقة الرسول ﷺ كل البعد، مع أن الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والرسل وكانت معجزته " القرآن " وهي معجزة خالدة إلى يوم القيامة للناس كآفة. وإن المعجزات التي ظهرت من قبل الأنبياء والرسل وهي تذوب أمامه كما يذوب الندى أمام الشمس. لأنه نبي لا يأت بعد نبي ولا رسول، ولا تنزل شريعة سماوية ولا رسالة ربانية إلى يوم القيامة. ولأجل ذلك كان من اللازم أن تكون معجزته معجزة خالدة، وإن الله تبارك وتعالى جعل القرآن الكريم معجزته لمن يؤمن بالله واليوم الآخر، ومع ذلك كله فإن الذين كانوا يخالفونه من أول يومه فإنهم يطلبون منه المعجزة. ولما زاد الطين بلة والتنبور نغمة خرج القرآن الكريم من صمته الطويل وصارح بهذا الشأن فقال: {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ} (سورة الأنعام: الآية-٣٥) ومع ذلك كله فإن الله تبارك وتعالى قال في محكم تنزيله: {وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (سورة العنكبوت: (٥٠-٥١) ثم إسأل نفسك أيها المتشكك إنها لا تطمئن؟ وهي تحتاج إلى معجزة أخرى لتؤمن بالله وبرسوله؟. إذا تنطبق عليك هذه الآية القرآنية كل الإنطباق {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (سورة المرسلات: الآية-٥٠)

النواحي التي تدل على معجزة القرآن:

إذا تصفحنا أوراق تاريخ الأديان والمذاهب وأحوال الشعوب والأمم وطالعنا تلك الأوضاع والظروف التي عاشت فيها الأقوام والأمم والقبائل بكل دقة وأمانة فوجدنا نواحي كثيرة تدل على أن القرآن الكريم معجزة تتحير بها عقول البشر، وإنه هزَّ قريشا مع القبائل الأخرى بل العالم أجمع. وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} (سورة الأحزاب: الأية—٧٢) حيث يقدسه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان إلى يومنا هذا. ويتلذذون بقراءته وتفسيره، ويبذلون قصارى جهودهم لإستخراج مكنوناته وكنوزه، ويسمعون على الوسائل الإلكترونية جالسين حينا وقائمين حينا آخر، ويقرؤونه في الصلوات ذرافات ووحدانا في المساجد في ظلمات الليل تارة وفي رابعة النهار تارة أخرى، ويستمعونه بكل شوق ورغبة كأن على رؤوسهم الطير، وبكل هدوء وبهجة، لأنهم سمعوا أن القرأن قال عنهم: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (سورة آل عمران: الآية- ١١٠) قال الحافظ ابن كثير: وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم -القرآن- الذي شرفه الله -تعالى- على كل كتاب أنزله. وجعله مهيمنا عليه. وناسخا له وخاتما له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة. وهذا القرآن نزل منجما بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به، وبمن أنزل عليه. فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة "[٢٣]

وهم يراجعون إليه لإثبات تحقيقاتهم العلمية الحديثة بكل افتخار واعتزاز، فلا يتصورها المجتمع البشري فضلا عن المقارنة بين هذا وذاك، وإن القرآن كتاب نزل به الروح الأمين على أفضل الأنبياء وخاتم المرسلين قبل ما يزيد من ألف وأربعمائة سنة. وإنهم سمعوا رسولهم الكريم ﷺ يقول: ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: وما

اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"[٢٣]

وإن الرسول ﷺ حرض الأمة على تلاوة القرآن فقال: "لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل وأناء النهار "[٢٤]

فقال علماء التفسير: "وعلُوُّ القرآن على سائر كتب الله – وإن كان الكل من عنده – بأمور، منها: أنه زاد عليها بسور كثيرة، فقد جاء في الحديث أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم خُصَّ بسورة الحمد، وخواتيم سورة البقرة، وفي مسند الدارمي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "إن السبع الطوال مثل التوراة، والمئين مثل الإنجيل، والمثاني مثل الزبور، وسائر القرآن بعد هذا فضل" وأخرج الإمام أحمد والطبراني، عن واثلة بن الأسقع، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أُعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأُعطيت مكان الزبور المئين، وأُعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل [٢٥] وهنا لا نريد أن نطيل الكلام على الباحثين والقرآء بذكر تلك المعجزات، ومع ذلك كله أريد أن أذكر هنا ثلاث ناحيات تشير إلى معجزة الرسل صلى الله عليه وسلم، وتميز بين تلك المعجزات التي ظهرت في القرون المنصرمة:

ألف: لغة القرآن لغة حية مع أنها قطعت مسافاتها الطويلة، وتوجد فيها روعة الأسلوب مع دقة العبارات والألفاظ المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه، وتغذي العقول برحيقها الصافي وتشفي القلوب والنفوس مع أن العالم دخل في القرن الحادي والعشرين.

ب: عدم التغيير في إعراب القرآن والنقط والحروف فضلا عن الكلمات والآيات.

جـ: إستنانة الناس أمام تحديات القرآن، حيث أنه دعا هاتوا برهانكم و أمثالكم إن كنتم تعلمون.

الكتب المقدسة ولغة القرآن:

وإذا ألقينا النظر على كتب المذاهب القديمة والحديثة التي توجد في العالم الراهن فالقرآن فيها كتاب مدهش، لأنه هو الحق المنزل من عند الله الحكيم، وهو منهج الحياة المتاكل، وهو ليس منهاج بشر أو فرد، أو خطة مجموعة من خبرآء العلوم والفنون، بأنه رُسِم في السماء ثم نزل به الروح الأمين على محمد بن عبد الله. وإن القارئ يظهر الدهشة والإستنكار بعد مطالعته، لأن جميع لغات الكتب المقدسة السماوية أصبحت بالية جدا، وحلت لغة هذه الكتب المذكورة المكان في رفوف الدولاب وخزنات التاريخ في المتاحف العالمية، وفي جانب آخر فإن الكتب السماوية كلها لا تخرج عن التحريفات والتغييرات. بل دخل فيها بأيدي حامليها التحريف والتبديل والحذف والزيادة والتناقض والتطرف، فاختلط فيها كلام الله بكلام الأحبار والرهبان والحواريين والحواشيين. وأرباب الكنائس وأهوائهم الخبيثة. ولكن لغة القرآن لغة حية في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان، وتدرس هذه اللغة في الأسر المسلمة باهتمام بالغ، وإذا تساءلنا عن السبب الذي دفعنا إلى تعلم اللغة العربية كتابة وتعبيرا، حوارا وخطابة، فسوف لا نرد هذا السؤال إلا بأن اللغة العربية هي لغة الكتاب والسنة النبوية والشريعة الإسلامية السمحة، لأن اللغة العربية لا تحتوي على اللغات وتحتوي فيها اللغات الأخرى، فإذا أردنا أن نطلع على ما في الكتاب والسنة من المفاهيم الإنسانية العالمية التي تتلخص في أداء العبودية لله تبارك وتعالى فلن نستغنى عن تعلم اللغة العربية بإتقان وتذوق بحيث لا يواجهها غموض أو إلتواء في تفهم المعاني التي تنطوي عليها شريعة الله تبارك وتعالى، كما قال جل شأنه: {تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ} (سورة القمر: الآية- ٢٠) وهذه هي الميزات التي ينفرد بها القرآن عن غيره من الكتب السماوية الأخرى.

هذه هي الحاجة الأكيدة لكل طالب مسلم يدرس في مدرسة دينية ويتلقى العلوم الإسلامية والعربية بصفة خاصة فضلا عن عامة المسلمين، فهل نحن شاعرون بهذه الحاجة وأهمية الدور الذي يجب

أن نمثله كعالم ديني مخلص ؟ ولأداء هذا الدور الأهم يعتبر تعلم اللغة العربية والإقتدار عليها مسؤلية أساسية، فالذين يزعمون أنه يكفي تعلم اللغة العربية في حدود التفهم فهم في خطأ كبير. لأنهم تعلموا حروفها ولم يتذوقوها. ذلك أنه لا بد من الإطلاع على رموز هذه اللغة وأسرارها الغنية مع تفهمها وتنشئة ذوقها الصحيح، هي الغرض المطلوب. فإذا إهملنا هذا الجانب المهم فسوف نواجه صعوبة كبيرة في إدراك الكتاب والسنة والتوصل إلى غرضها الأصيل. بناء على هذه الأسباب فإن مؤسستنا التعليمية إعترفت باللغة العربية كلغة حية، وجعلت تعليم هذه اللغة هدفا كبيرا. فركزت على وسائل لازمة لتعليمها. ذلك لكي لا ينحصر نطاقها بين المتون والحواشي والشروح والتعليقات فحسب. بل لكي تنبعث كلغة تساير الحياة وتساعدها في كل مرحلة. وتجعل العالم المتغير يخضع أمام سلطان أهميتها وقيمتها، وتتميز بمكانة خاصة بين اللغات العالمية. حتى يلهج بها ألوف من البشر من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن شرقها إلى غربها. مع أن القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم قبل خمسة عشر قرنا.

نظرة خاطفة على الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن الكريم:

لقد بدأ التكلم عن الإعجاز البياني للقرآن الكريم منذ يومه الأول. لما نزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم من الله تبارك وتعالى. ووصل هذا الخبر إلى القبائل العربية التي كانت تعيش آنذاك في العرب. فأدركت قريش إعجاز القرآن كل الإدراك وأيقنت في حينه أنه ليس من كلام الناس. فقال زعماؤهم: لا يستطيع أحد منا أن يحس لغه إلا أن يسلم بأن هذا ليس من كلام البشر. حتى بدأ أشرارهم أن يحولوا بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الناس، ويصدون الوفود عن سبيله وعن سماع القرآن. وهم بذلوا قصارى جهودهم لنشر الدعايات الكاذبة ضد الرسول لكي لا يصل إلى هؤلاء الذين يأتون إلى مكة لأداء مناسك الحج، فقالوا لهم: إن محمدا يفرق بين المرء وزوجه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، حتى بين العشيرة والأسرة. وإن التاريخ يشهد لنا بأن الآيات القرآنية لما وصلت إلى سمع أشدهم عداوة وبغضا وحسدا وحقدا

للإسلام فألقى سلاحه ورمحه وسيفه وجنته مصدقا وتأييدا ويقول بأعلى صوته: إن هذا ليس من كلام البشر. كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما خرج بسيفه وأراد أن يقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ويذهب إلى بيته ليقتله. ووقع ما وقع في الطريق لما سمع عن أخته " فاطمة بنت الخطاب" وزوجها " سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل " قد أسلم. فأخذ " عمر " طريقه إلى بيت صهره مستثار الغضب. يريد أن يقتله ويقتل زوجته فاطمة. فما كاد يدنو من الباب حتى سمع تلاوة خافتة لآيات من سورة طه. فدخل يلح طلب الصحيفة التي لح أخته تخفيها عند دخوله.... وانطلق من فوره إلى البيت الذي اجتمع فيه المصطفى بأصحابه، فبايعه. وأعز الله الإسلام بعمر. وقد كان من أشد قريش عداوة للإسلام وحرباً للرسول. [٢٦]

وهذه قصة إسلام عمر مشهورة لا نذكر هنا خشية تطويل البحث. لقد اختلف علماء علوم القرآن في تعيين الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. حتى نشب الصراع بين العلماء حول الصور والألوان البلاغية في القرآن. وقال بعضهم أنها معجوة ويعدها من الإعجاز البلاغي للقرآن، وبعضهم يقول أنها غير معجزة. وعلى رأس قائمتهم أبو بكر الباقلاني، ولكننا لما طالعنا هذه المسألة بكل دقة وأمانة فإننا وجدنا أنها معجزة. في الحقيقة أن القرآن الكريم كله معجزة بنظمه وببيانه وأسلوبه وتعبيراته وخطاباته. ولأجل ذلك فإن الباحث والمدقق يتحير لما رأى الاستعارة في هذه الآية القرآنية {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً} (سورة مريم. الآية: ٤) ويقول: لا يستطيع أحد أن يتوضحها بدون العلم الكامل والمعرفة التامة بالنظم القرآني.

أثر القرآن في اللغة العربية:

لقد لعب القرآن الكريم دورا كبيرا في ترسيخ جذور اللغة العربية في المجتمع البشري بنزوله باللغة العربية. حتى أنها توسعت نطاقها وأصبحت لغة الدين السماوي إلى يوم القيامة. وينظر

إليها المسلمون بكل إحترام وإكرام حيث أنها جزء لا يتجزأ من دينهم وعقيدتهم. حتى قال عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأعلى صوته: " تعلموا العربية فإنها من دينكم" [٢٧]

وكتب شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القيم " اقتضاء الصراط المستقيم " قال الشافعي فيما رواه السلفي بإسناد معروف إلي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال : سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول..: اللسان الذي اختاره الله عز وجل لسان العرب فانزل به كتابه العزيز. وجعله لسان خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسام. ولهذا نقول :ينبغي لكل احد يقدر على تعلم العربية أن يتعلمها لأنها اللسان الأولى. [٢٨] "

وهذا معنى ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عيسى بن يونس عن ثور عن عمر بن يزيد قال كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أما بعد فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي "وفي حديث آخر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال " :تعلموا العربية فإنها من دينكم وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم " وهذا الذي أمر به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من فقه العربية. وفقه الشريعة يجمع ما يحتاج إليه. لأن الدين فيه فقه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله ..وفقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله [٢٩]

ومما لا شك فيه أن اللغة العربية لغة القرآن، والقرآن كتاب يدل على معجزة الرسول ﷺ، ولا يوجد كتاب آخر في تاريخ الإنسان دون القرآن يحمل لغته الأصيلة التي استخدمها صاحبها في زمن التأليف. بل تغيرت لغتها بتغيير العصور الأزمان وأهل اللغة في القرون المنصرمة. كما يشهدها التاريخ البشري. وها أنا أريد أن أضرب أمثلة لإثبات هذا الدعوى حتى لا يكون شيء من الكذب لدى الباحثين وقارئي هذا البحث العلمي. إذا طالعنا تاريخ الكتب المقدسات فرأينا الإنجيل أقرب العهد من القرآن الكريم. ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يقول بالتأكيد بأي لغة يلهج نبينا عيسى عليه السلام، وإن الذين يقولون إنه يتكلم باللغة الآرامية فإنهم لا يقولون إلا

بالتنبؤات والتكهنات، وإن الكتاب الذي يوجد لدينا بصورة الإنجيل ويدل على التعليمات المسيحية كانت نسخته القديمة باللغة اليونانية، ودعوة المسيح عليه السلام التي توجد في العالم الراهن كأنها متوقفة على الترجمة وعلى توجيهات أرباب الكنائس فقط، ثم تختلف اللغة اليونانية القديمة والجديدة إختلافا كثيرا بتغيير الظروف والأحوال. وإن الكتاب الذي كان موجودا في نهاية القرن التاسع أضيفت فيه كلمات جديدة يبلغ عددها إلى ٥٥٠ في الكتاب المقدس الجديد، وكذلك ١٢٪ في المائة في متنه فلا يدرك القارئ غموضها ومعانيها، وكان الإنجيل على هذا الحال إلى مدة طويلة حتى وجد عالم ألماني (Mr. Adolph Disenan) كتابات قديمة في مصر في القرن التاسع عشر، وإنه تكهن بعد أن طالعها وقال: إن هذه الكلمات دخلت في الكتاب المقدس من اللغة اليونانية القديمة يلهج بها عامة الناس كلغة محلية في ذلك العصر، وهي كانت لغة عامة الناس في فلسطين في القرن الأول، وبعد ذلك أنه عين معاني تلك الكلمات ولكن ما استطاع أن يبين معاني ٥٠ كلمة موجودة في الإنجيل اليوناني[٣٠]

وإن المستشرق (Arcs Ronan-1892-1823) كتب في كتابه القيم (اللغات السامية) عن اللغة العربية بعد أن طالعها بنظرة عميقة " إن الواقعة العجيبة في التاريخ الإنساني التي تحير العقول وهي اللغة العربية، وكانت هذه اللغة غير معروفة في التاريخ القديم، ولكنها خرجت إلى حيز الظهور فجأة كلغة كاملة وشاملة، وبعد ذلك ما وقع أي تغيير يُذكر بإهتمام بالغ، حتى لا يوجد شبابها وشيخوختها، وهي الآن على حالتها التي كانت في يومها الآول" [٣١]

وفي الحقيقة هذا الإعتراف عن اللغة العربية يدل على إعجاز القرآن، لأن آداب القرآن الإعجازي ينقذ اللغة العربية من التغيير والتبديل، حيث يكون التغيير والتبديل في جميع اللغات كما يشهد لنا التاريخ القريب والبعيد، وتتأثر اللغات الأخرى بتغيير الزمان والمكان وأهل اللغة كذلك. كما قال عالم مسيحي وخبير من خبراء الأدب العربي جرجي زيدان (١٨٦١-

١٩١٤) في كتابه القيم (وبالجملة فإن للقرآن تأثير في آداب اللغة العربية ليس لكتاب ديني مثله في اللغات الأخرى). [٣٢]

وإن اللغة العربية لغة قوة ورقياً بما وهبها الله سبحانه وتعالى من المعاني الفياضة، والألفاظ المتطورة والتراكيب الجديدة، والأساليب العالية الرفيعة، والاقتباس منها مناط العز والفخار. وغدت تتألق وتتباهى على اللغات الأخرى بما حازت عليه من الجمال والكمال. كما أشار العلاّمة الرافعي رحمه الله: "نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه إذ النور جملة واحدة، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض. وإنما كان ذلك، لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهره على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب. ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحويل التركيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهراً لا يقضي العجب منه لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود لأنها هي لغتهم التي يعرفونها ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم". [٣٣]

حتى اعترف الشاعر الجاهلي—الوليد بن المغيرة—بلاغة لغة القرآن وروعته وجماله. فقال: "فو الله ما فيكم من رجلٍ أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته" [٣٤]

وهذا يدل على أن القرآن كتاب الله، وتاريخ خمسة عشر قرن المنصرم يشهد حتميا بأن القرآن معجزة خالدة ولغتها لغة حية، ولا يحتاج إلى مزيد من المعلومات والبراهين القاطعة التي تدل على

إعجاز القرآن. وفي الأخير أستطيع أن أقول: إن الكتب السماوية الأخرى كلها لا تخرج عن التحريفات والتغييرات، ودخل فيها التحريف والتبديل والحذف والزيادة والتناقض والتطرف، فاختلط فيها كلام الله بكلام الأحبار والرهبان وأرباب الكنائس لتحقيق أهوائهم الذاتية.

المراجع والمصادر

١. حسن، محمد الخضر. *القياس في اللغة العربية*. الطبعة الثانية ١٩٨٣: دار الحداثة، بيروت. ص/١٢

٢. من قصيدة أبي الأعلى المعري

٣. من قصيدة زهير بن جناب الكلبي

٤. شاعر عربي. لم أعثر على معرفته

٥. جوهري، طنطاوي. *الجواهر في تفسير القرآن*. القاهرة: مصر. ج/٢٣. ص/ ١١١-١١٢

٦. أنظر: مقدمة *تفسير ابن كثير*.

٧. ابن جرير، أبو جعفر محمد . تفسير الطبري. وصححه الألباني. الطبعة: ١٤٢٠هـ. مؤسسة الرسالة. بيروت. ج/ ٤. ص/ ٣٩٧

٨. *المصدر السابق*

٩. *صحيح الجامع الصغير*. رقم الحديث: ٣٤ ج/١. ص/٦٩

١٠. *صحيح مسلم*. فضائل الصحابة. باب من فضائل علي بن أبي طالب. رقم الحديث: ٢٤٠٨/٣٧

١١. الإمام الطحاوي. *شرح الطحاوي*. ج/١. ص/ ١٧٢

١٢. السيد قطب. *التصوير الفني في القرآن*. الطباعة: ١٩٦٧. دار القلم. بيروت. ص/١٧

١٣. إبن هشام، عبد الملك. *السيرة النبوية*. الطبعة الأولى ١٩٧٨. دار الريان. القاهرة. ج/١. ص/ ٢٣٧

١٤. المصدر السابق

١٥. ابن كثير، إمام الدين أبو الفدى إسماعيل ابن عمر. *تفسير ابن كثير*. ج/٤. ص/٤٣٠

١٦. أبو عبد الله، محمد ابن إسماعيل. *صحيح البخاري*. كتاب فضائل القرآن. دار ابن كثير. بيروت. رقم الحديث: ٥٠٢٧

١٧. خان. وحيد الدين. *كيف ندرس القرآن*. الطبعة ١٩٨٠. مكتبة الرسالة. دهلي الجديدة. نقلا من *"الجواهر في تفسير القرآن"*. ص/ ٢٥

١٨. *معجم الوسيط*. الطبعة: ١٩٧٢. دار التراث العربي. القاهرة. مادة: عجز. ص/١٩٦

١٩. *المصدر السابق*.

٢٠. ابن منظور. *لسان العرب*، الطبعة: ١٩٦٨. بيروت. دار الصادر. مادة: عجز. ص/ ٣٧٦

٢١. *المصدر السابق*.

٢٢. *صحيح مسلم*. الذكر والدعاء. باب فضل الإجتماع على .....وقم الحديث:٢٦٩٩

٢٣. *صحيح البخاري*، فضائل القرآن. باب اغتباط صاحب القرآن. رقم الحديث: ٥٠٢٥

٢٤. *صحيح مسلم* : رقم الحديث — ٢٦٩٩

٢٥. *مسند الإمام أحمد*. ج/ ٢. ص/ ١٠٧

٢٦. عبد السلام. *سيرة ابن هشام*. دار القلم. بيروت. ط : ١٩٧٨م. ص/ ١٥١

٢٧. السيوطي. جلال الدين. *تاريخ الخلفاء*. مكتبة المنار. دهلي الجديدة. ص/ ٣١٢

٢٨. الإمام. ابن تيمية. *اقتضاء الصراط المستقيم*. دار القلم. بيروت. ج/ ١. ص/ ٤٦٤

٢٩. السيوطي. جلال الدين. *تاريخ الخلفاء*. مكتبة المنار. دهلي الجديدة. ص/ ٣١٤

٣٠. خان. وحيد الدين. *الثورة المحمدية*. المركز الإسلامي. دهلي الجديدة. ص/١٧٠

٣١. Xavier Leon- Detour, S.J. ***The Gospels and The Jesus of History***, Deselect Co New York 1970, Page No- 79-80.

٣٢. جرجي زيدان. *آداب اللغة العربية*. الطبعة ١٩٧٥. مؤسسة الرسالة. بيروت. ص/ ٥٤

٣٣. الرافعي. مصطفى صادق. *تاريخ آداب العرب*. الطبعة الثانية. ج/ ٢. ص/ ٣٧ دار الكتاب العربي. بيروت: ١٩٧٤م

٣٤. الإمام البيهقي. *شعب الإيمان للبيهقي*. ج/١. ص/١٥٧

٣٥. تاريخ تقديم البحث : ٢٠١٥/٣/٧م